﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: 91]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذِكْرِ العجيبِ إلى ذِكْرِ الأعجبِ في العائلة الواحدةِ والزّمن الواحد

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة فضائلَ المولى سبحانه وتعالى على عباده المُخلَصين، وكان آخر ما ذُكر ما كان لزكريّا عليه السلام من أمر الولد، وما تحقّق له من معجزة الإنجاب، حَسُن ذِكْر مريمَ وابنِها عيسى عليهما السلام؛ وذلك لما بينَهما من القرابة والصِّلة؛ و"لأنّ تلك موطِّئة لهذه؛ فإنَّها إيجادُ ولدٍ من شيخٍ كبيرٍ قد طعن في السِّنِّ، ومن امرأة عجوز عاقرٍ لَمْ تكُن تَلِد في حال شبابها، ثمّ يذكر قِصّة مريمَ وهي أعجبُ؛ فإنّها إيجادُ ولدٍ من أُنثى بلا ذَكرٍ"[1]، كما أنَّه حسُن التَّنويه بشأن امرأةٍ عابدةٍ، بعد ذِكْر جملةٍ من الأنبياءِ الرّجال.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾: (حصن) أصلٌ يدلُّ على المَنعِ والحِفْظِ والحياطَةُ[2]، والإحْصانُ: على وزنِ (إفْعالٍ)، وهو مصدرٌ مُشتَقٌّ من: أحْصنَ، يُحْصِنُ، إحْصانًا، يُقالُ: حَصُنَ المكانُ فهو حَصينٌ: إذا صار منيعًا، وكلُّ موضعٍ حَصينٍ لا يوصَلُ إلى ما فيهِ فهو حِصْن[3]، وهو أيضًا: الدُّخولُ بِزَوْج بِعقد نِكاح، وامرأةٌ حَصانٌ: عَفيفَةٌ، وكلُّ امْرأةٍ عَفيفةٍ مُحْصَنةٌ ومُحْصِنةٌ، وكلُّ امْرأةٍ مُتَزَوِّجةٍ مُحْصَنةٌ لا غَيْر[4]، يُقالُ: أحْصَنَت المرأةُ، وتَحَصَّنَت إذا تَكَلَّفَت ذَلِك، وكذلك

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 371.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حصن).
(3) الثّعالبيّ، فقه اللُّغة، ص: 26.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (حصن).

الرَّجُلُ[1]، والإحصانُ في الآية مُراد به: جَعْلُ الشَّيءِ حَصينًا؛ أيْ: لا يُسْلَكُ إليه، ومعناهُ: مَنَعَتْ فَرْجَها عن الرِّجالِ وحفظته[2].

2) ﴿فَنَفَخْنَا﴾: (نفخ) أصلٌ يدلُّ على انْتِفاخٍ وعُلو، والنَّفخُ: إخراجُ الرّيحِ من الفَمِ، يُقالُ: نَفَخَ بِفَمِهِ، يَنْفُخُ، نَفْخًا: إذا أخرَجَ منه الرّيحَ[3]، ويكون ذلك في الاستِراحَةِ والمُعالجةِ ونحوهما، ونَفَخَ النّارَ بالمِنفاخ: هيَّجها وأذْكاها بريحه، والمِنْفَخُ والمِنفاخُ: آلتُهُ، وهو ما يُنفخُ به[4]، ومن معاني النَّفْخِ أيضًا: ارتِفاعُ الضُّحَى، والفَخْرُ والكِبْرُ[5]، وقد أُطْلِقَ النَّفخُ في الآية تمثيلًا لإلقاءِ روحِ التَّكوينِ للنَّسلِ في رَحِمِ المرأةِ دَفْعَةً واحدةً[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عطفتِ الآيةُ الكريمةُ قِصَّة مريمَ وابنِها ﷺ على القَصَص السّابق مبيِّنةً صفةَ الإحصان الَّتي امتازت بها؛ والمعنى: "واذكر - يا محمّد ﷺ - مريمَ البتولَ ﷺ الَّتي أحصنت فرجَها وأعفَّت نفسَها وحفظتْها من كلّ عيبٍ وذَمٍّ"[7]؛ "فنفخنا فيها من جهة روحنا - وهو جبريل ﷺ - حيثُ أمرناه بذلك؛ فامتثلَ أمرَنا فنفخ في جيب دِرْعها؛ فكان بذلك عيسى ابنَها"[8]، وجعلناها وابنها آيةً على قدرة اللّه سبحانه وتعالى، فقد خُلق ﷺ من غير أبٍ، كما خُلق آدمُ ﷺ من غير أبٍ وأُمٍّ، فجُعل عيسى ﷺ آيةً للنّاس جميعًا، وذَكَر مريم هنا - وإنْ لم تكن من الأنبياء - لأجل ابنها عيسى ﷺ[9].

الأخلاق العاليةُ تُكرِّم صاحبَها فتجعله في المنازلِ العالية

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حصن).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 378.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفخ).
(4) ابن سِيدَه، المُحكَم، والزّبيديّ، تاج العروس: (نفخ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفخ).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 138.
(7) حجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/ 554.
(8) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 247.
(9) حجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/ 554.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى العطفِ ودلالته:

عِـفَّـةُ مـريـمَ وإحـصـانُـهـا جعلها مذكورةً في درجِ النّبيّين

اسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ يجوز أن يكون معطوفًا على الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [الأنبياء: 73]؛ أيْ: (ومريمَ جعلناها وابنَها - أيضًا - ممّن يُؤْتَمُّ بهم كسابقيها من الأنبياء والمُرسلين، كلُّ هؤلاء جعلهمُ اللّهُ تعالى أئمّةً يُهتدى بأمرهم ويُقتدى بهديهم)، وهي بما نالته من الإحصان والعِفَّة، رمزُ هُدًى تأتمُّ بها البناتُ والنّساء في كلِّ جيل وقبيلٍ؛ ولعلّ هذا وجْهُ ذِكْرِها معطوفةً على من جعلهمُ اللّهُ تعالى أئمّةً يهدون بأمر الله تعالى.

علّةُ التّعريف بالموصول دونَ الاسمِ العَلَم:

اشتُهرت مريمُ بـمـا جـاء في جملة الصِّلة؛ فاستحقَّت أن تُكرّم به

المُراد بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّتِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ مريمُ، وقد آثَر النَّظمُ تركَ اسمِها الصَّريح، وهي "لم تكن من الأنبياء، والمَذكورون هنا جميعًا أنبياء"[1]، و"إنَّما ذكرَها وليست من الأنبياء، ليتمَّ ذِكْرُ عيسى ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾"[2].

وذِكْرها بالموصول من باب اشتهارِها "بمضمون الصّلة كما هو شأن طريق الموصوليّة غالبًا، وأيضًا لِما في الصِّلة من معنى تَسْفيه اليهود الَّذين تقوَّلوا عنها إفكًا وزورًا، وليبنيَ على تلك الصِّلة ما تفرَّع عليها من قوله تعالى: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾؛ الَّذي هو في حُكم الصّلة أيضًا؛ فكأنّه قيل: والتي نفخنا فيها من روحنا؛ لأنّ كِلا الأمريْن موجِبٌ للثّناء، وقد أراد اللّهُ إكرامَها بأنْ تكون مَظهرًا لعظيم قُدرته في خَرْق العادة البشريّة في سُنَن الحَمْل؛ ليرى النّاسُ مثالًا من

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 949.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 338.

التّكوين الأوّل، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: 59]"[1].

والاسم الموصول - بما فيه من إبهام - يَفتقر إلى جملةٍ تَصِلُه وتَسُدُّ فَقْر دلالته، وجملة الصِّلة تُتيح دلالاتٍ لا تُتاح لو جاء التّعريف بالاسم الصَّحيح مباشرةً (مريم)؛ فالاسم الموصول ﴿وَٱلَّتِىٓ﴾ هَيَّأ لجملة ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ فنبَّه إلى شَرَفها عليها السلام، وسببِ وصْلِها بالأئمّة الَّذين يُهتَدى بهم، ونوَّه بذلك إلى السّبب الَّذي بوَّأها تلك المنزلةَ السّامقةَ بينَ الرّجال الكُمَّل ممّن سبق ذِكرُهم من الأنبياء والسّابقين قبلَها، وفي صحيح البخاريّ عن الرّسول ﷺ: "كَمُلَ مِنَ الرِّجالِ كَثيرٌ، ولَمْ يَكْمُلْ من النِّساءِ إلّا آسيَةُ امْرَأةُ فِرْعَوْنَ، ومَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ"[2].

بلاغة التّعريض بمُفردة الإحصان:

ذِكْرُ صفةِ العِفَّة تعـريـضٌ بمَن وصفها بخلافِه

لَمّا اتّهم اليهودُ مريمَ عليها السلام بأنّها جاءت بأمرٍ فَري؛ ناسب ذلك ذِكرُ الإحصانِ للرّدّ عليهم والتّعريض بما قالوا، وزكّاها بأنّها محصنَةٌ عفيفة عن كلّ فِرية[3]، وقرّر أنّها "أَحْصَنَتْ فَرْجَها إحصانًا كليًّا منَ الحلال والحرام جميعًا كما قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم: 20]"[4]، و"حفظتْهُ حفظًا يَحِقُّ له أن يُذكَر ويُتَحَدَّث به؛ لأنَّه غايةٌ في العِفّة والصّيانة، والتّخلّي عن المَلاذ إلى الانقطاع إلى الله تعالى بالعبادة مع ما جمعت إلى ذلك من الأمانة والاجتهاد في متانة الدّيانة"[5]، وقد "كان التّبتُّل إذ ذاكَ مشروعًا للنّساء والرّجال"[6]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 137.
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (3411).
(3) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 373.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 133.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 12/ 471.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 84.

فالإحصانُ إذًا دليلُ العِفَّة والطُّهر، فقد كانت ﷺ من العِفّة والطُّهر كمَن تحصّنتْ بِحِصنٍ حصينٍ، بحيثُ لا يُخلَص إليها، وعليه؛ فلفظُ الإحصانِ يتضمّن معنًى كِنائيًّا؛ إذ سيق معنى العِفّة مدعومًا ومُقرَّرًا بدليله، وهو الإحصانُ المُشتقُّ من الحِصن المانعِ من كلِّ ريبةٍ وتُهْمَة.

بلاغةُ ذِكر لفظة ﴿فَرْجَهَا﴾ دون الاكتفاء بوصف الإحصان:

الإفصاحُ يحسم القضيّة ويُنهي شوائبَ الشُّبَه

آثَر النَّظمُ الكريم التّصريحَ بذِكْرِ لفظة ﴿فَرْجَهَا﴾؛ ليكون دَحْضًا مباشِرًا لِتُهمة اليهود، فقد اتَّهموها تُهمة مُبَطَّنةً بالفُجور والزِّنى، حين واجهوها بقولهم: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]؛ فباشر الذِّكرُ الحكيم ما لم يجرُؤوا على التّصريح به، هادفًا بصراحةٍ مِن شأنها أن تُخجِلهم وتُخزيهم.

بلاغة المَجاز المُرسَل:

إشارةُ الذّكر الحكيم بتحصين المرأة فرجَها مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الجزئيّة؛ إذ مَدَحَها في حفظ جزءٍ واحد منها، لكنَّ المقصودَ حفظُها نفسَها كلَّها.

يُحتمَل أن يكون المقصودُ بالفَرْجِ الدِّرعُ

ويُحتمَل أن يكون المقصود بـ ﴿فَرْجَهَا﴾ "دِرْعُها؛ وهذا مُحتَمَل؛ لأنّ الفَرْج في اللُّغة: كلّ فُرْجة بين شيئَيْن، وموضعُ جيبِ دِرْع المرأة مشقوقٌ؛ وهو فَرْج، وهذا أبلغ في الثّناء عليها؛ لأنّها إذا مَنَعت جيبَ دِرعها فهي لِنَفْسها أمنع"[1].

وقد نقل القرطبيّ عن السّهيليّ قولَه: "فلا يذهبنَّ وهمُك إلى غير هذا، فإنَّه من لطيف الكناية؛ لأنّ القرآن أنزهُ معنًى، وأوزنُ لفظًا، وألطفُ إشارةً، وأحسنُ عبارةً ...، لا سيَّما والنّفخُ من روح القُدُس بأمر القُدّوس، فأضِف القُدُسَ إلى القُدّوس، ونزِّه المُقدَّسةَ المُطهَّرةَ عن الظّنِّ الكاذب والحَدس"[2].

(1) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 3/ 250.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 338.

سِرُّ العطف بالفاء في ﴿فَنَفَخْنَا﴾:

عِفّةُ المرأةِ مفتاحُ سعادتِها

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا﴾ سببيّةٌ عاطفة؛ لأنّ ما بعدَها مُسبَّب عمّا قبلَها؛ أيْ: تسبّب عن الإحصان النّفخُ، كأنّه قيل: لمّا كانت مريم عليها السلام بهذا الطُّهر والعِفّة والحَصانة؛ اخترناها مَحَلًّا لحمل عيسى عليه السلام ومَنبَتًا لكلمة الله تعالى؛ فما كان اللّهُ تعالى ليختارَ لحمل نبيٍّ رسولٍ بغيًّا، كما يتهمونها بذلك.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ النّفخِ:

التّعبيرُ بالنّفخِ تغليفٌ راقٍ لكيفيّةِ حصولِ الحَدَثِ الجليلِ

حقيقةُ النّفخِ: "إخراجُ هواءِ الفم بتضييق الشّفتيْن، وأُطلِق هنا تمثيلًا لإلقاء روح التّكوين للنّسل في رحم المرأة دَفعةً واحدةً بدون الوسائل المعتادة؛ تشبيهًا لهيئة التّكوين السّريع بهيئة النّفخ، وقد قيل: إنّ المَلَك نفخ ممّا هو له كالفَم، والظّرفيّة المُفادة بـ (في) صريحةٌ في كون مريم ظرفًا لِحُلول الرّوح المنفوخ فيها؛ إذ كانت وعاءَه؛ ولذلك قيل: ﴿فِيهَا﴾؛ للإشارة إلى أنّ الحَمْل الّذي كون في رَحِمها حَمْلٌ من غير الطّريق المُعتاد، كأنّه قيل: (فنفخنا في بطنها)؛ وذلك أعرقُ في مخالفة العادة؛ لأنّ خرق العادة تَقْوى دلالتُه بمقدار ما يضمحِلّ فيه من الوسائل المعتادة"[1]، وعلى كلّ الأحوال ففي استعمال كلمة ﴿فَنَفَخْنَا﴾ تغليفٌ وطَيٌّ مُهذَّب راقٍ لكيفيّة حصولِ هذا الحدث الجليل الّذي حدث بلا أسبابه المعهودة.

نُكْتَةُ إسنادِ فعل النّفخِ إلى الضّمير:

الأمـرُ الجليلُ لا يكون إلّا من الجليل

إيثارُ الذِّكْرِ الحكيم إسنادَ النّفخِ إلى ضمير العَظَمة في ﴿فَنَفَخْنَا﴾ دون أن يُسنده إلى الاسم الظّاهر يوحي بما له ﷻ من "العَظَمة الّتي لا يُداني أوْجَها نقصٌ، ولا يَقرَبُ من ساحتها حاجةٌ ولا وهَنٌ"[2]، وقد دلّتِ الآياتُ الكريمات في مواضع أخرى على أنّ النّفخ كان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 138.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 471.

من جبريل ﷺ "ولكن لمّا كان بأمره سبحانه؛ صحّتِ الإضافةُ إليه تعالى"[1]؛ والمعنى: "أمرْنا جبريلَ حتّى نفخ في دِرعها؛ فأجرينا فيها روحَ المسيحِ كما تجري الرّيحُ بالنّفخ؛ وذلك أنّ الله تعالى أجرى فيها روحَ المسيحِ بنفخ جبريلَ، وأحدث بذلك النّفخِ عيسى في رحمها"[2].

بلاغة التّقييد بحرف (في) الظّرفيّة:

النّفخُ فيها كنايةٌ بديعةٌ واستعارةٌ لطيفةٌ عن الإحياء

في تعليق (النّفخ) بالجارّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ إشارةٌ إلى ما حلَّ فيها ﷺ من البَركَة، وأنّ البَركَة عَمَّتها كلَّها، وحلَّت في جميع كيانها، ويُحتمَل أن يكون معنى ﴿فِيهَا﴾؛ أيْ: في النّفس[3]؛ وفي ذلك إيحاءٌ بأنّ بَركَة الله تعالى عمَّت السّيّدةَ العذراءَ كلّها؛ لأنّ المَقام مَقامُ هدًى عامٍّ؛ ولذلك ذُكِر معها ابنُها ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ دون ذِكْر التّفاصيل، "والظّاهر أنّ قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ كنايةٌ عن إيجاد عيسى ﷺ حيًّا في بطنها، ولا نَفْخَ هناك حقيقةً"[4]؛ أيْ: "أحيينا عيسى كائنًا في جوفها؛ فقوله: ﴿فِيهَا﴾ حالٌ منَ المفعول المحذوف ... ففيه تشبيهٌ لإيراد الرّوح في البدن بنفخة النّافخ في الشّيء؛ فيكون ﴿فَنَفَخْنَا﴾ استعارةً تبعيّةً"[5].

توجيهُ المُتشابِه اللّفظيّ في مرجع الضّمير:

قد تنال الأُمّ المنزلةَ العاليةَ بسبب ابنها الشّريف

لسائلٍ أن يسأل عن سببِ تأنيث الضّمير في سورة الأنبياء، وتذكيره في سورة التّحريم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التّحريم: 12]، والجواب: أنّه لمّا كان القصدُ في سورة الأنبياء الإخبارَ عن حال مريمَ وابنِها، وأنّهما جُعِلا آيةً للنّاس، وكان القصد التّعجّب من حالَيْهما، وأنّها بالنّفخ صارت حاملًا؛ ردَّ الضّمير إلى جملتها؛ إذ كان النّفخ

(1) القُشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 521.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 250.
(3) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1528.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 463.
(5) حقّي، روح البيان: 5/ 520.

في فَرْجها نفخًا فيها، فأوجبَ القصدَ إلى وصفها بعد النَّفخ بصفةٍ ترجع إلى جُملتها دونَ بعضها، فكان قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أوْلى من قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ [التحريم: 12]، وأمّا في سورة التَّحريم: فلمّا لم يكن القَصْد فيها إلى التّعجّب من حالها بالحَمْل عن النَّفخ، ولم يُسَقِ الكلامُ إلى ما سيق إليه في سورة الأنبياء من وصف حالِها بعدَ النّفخ؛ فاختلفا لذلك[1].

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتها:

تحتملُ (من) التَّبعيضَ والابتداءَ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ "حرف تبعيضيّ؛ ... أي: بعض جنسِ الرّوحِ الَّذي به يَجعل اللّهُ تعالى الأجسامَ ذاتَ حياة"[2]؛ فتفيد بأنّ حلول البَركةِ في السيّدة العذراء حصلت ببعض النّفخ، وبأيسر الأسباب، وأثمرَ أكبرَ البركات، ويمكن أن تكون ابتدائيّةً[3]؛ أي إنّ منشأ تلك الرّوحِ المنفوخةِ في أُمّ عيسى عليها السلام من عند الله تعالى بواسطة روح القُدُس عليه السلام، وفي ذلك التّشريفُ والتّكريمُ، والبَركةُ كلُّ البركة.

نُكْتةُ إضافةِ الرّوح إلى ضميرِ العَظَمةِ:

روحٌ منَ الله تعالى تنزلُ معه البركاتُ والتَّشريفاتُ والرِّفعةُ والطُّهر

أُضيف الرّوحُ إلى ضمير التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿رُّوحِنَا﴾ لتشريف مريمَ وعيسى عليهما السلام[4]، ودلَّت الإضافةُ كذلك "على عِظَم خُلوصِه وصفائه؛ أيْ: من روحٍ يَحِقُّ له أن يُضاف إلينا لِجلالته وطهارته؛ فكان من ذلك النّفخِ حَبَلٌ وولدٌ"[5].

وتُرهِصُ الإضافةُ بكراماتِ الوليد الَّذي يأتي من هذا النَّفخ الكريم، وذلك ما تجلَّى فورَ ولادته؛ إذ نطق بأبلغ الكرامات نُطقًا

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل، ص: 911 - 912.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 138.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 84.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 469.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 471.

فصيحًا: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: 30 - 31]، وذلك كلّه من بركات نون العَظَمة في ﴿رُّوحِنَا﴾؛ "لأنّه روحٌ مبعوثٌ من لدن اللّه تعالى بدون وساطة التّطوّرات الحيوانيّة للتّكوين النّسليّ"(1)، ويُحتمل أن يكون معنى ﴿رُّوحِنَا﴾: "أمرنا؛ أيْ: نفخ فيها جبريلُ بأمرنا"(2).

فائدة العطف بالواو ومعنى الجَعْل في: ﴿وَجَعَلْنَهَا﴾:

العطف بالواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَهَا﴾ دون (فجعلناها) يُفيد عمومَ جَعْلِها وابنَها آيةً قبلَ وبعدَ النّفخ، والجَعْل في حقِّ اللّه تعالى يأتي "بمعنى الخَلْق؛ ومنه قولُه تعالى في الأنعام: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، وهذه الأصل في الجَعْل، وبمعنى التّصيير؛ ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]"(3).

التّصييرُ من حالةٍ لأُخرى تشريفٌ وتكريمٌ لمَن أراد اللهُ له ذلك

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَهَا﴾ يحتمل المَعنيَيْن؛ لكنَّه في التَّصيير أجلى وأوضح، والمقصود: "قِصتَهما أو حالَهما"(4)، والتّعبير بالجَعْل يُظهِر العنايةَ الرّبانيّة بمريمَ البتول، وبابنِها عيسى عليهما السلام، وأنّه ﷻ تولّى تكريمَهما ورفْعَهما، حتّى إنّهما ما كانا آيةً لبني إسرائيلَ فحسب؛ بل جعلَهما آيةً للعالَمين جميعًا؛ وذلك أنَّ مريم عليها السلام كانت موهوبةً مُحرَّرةً للّه ربِّ العالَمين سبحانه وتعالى، وابنَها عيسى عليه السلام جاء إلى الدّنيا من أُمٍّ دونَ أبٍ؛ بالعناية الإلَهيّة الخاصَّة دونَ بقيَّة البشر.

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ الجَعْل إلى ضمير العَظَمة:

تعظيمُ شأن مَن أراده الله تعالى آيةً للعالَمين

في إسناد جَعْل مريمَ وابنِها عليهما السلام آيةً للعالَمين إلى ضمير العَظَمة (نا) تنويهٌ بخصوصيّة ذلك الجَعْل، والإيحاءُ بأنّه لا يكون إلّا بعَظَمةٍ لا يمتلكها إلّا العظيمُ سبحانَه وتعالى؛ وذلك أنّ عيسى عليه السلام جاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 139.
(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1528.
(3) ابن الجوزيّ، نُزهة الأعين النّواظر، ص: 229.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.

بكلمة ﴿كُن﴾ [آل عمران: 59]، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: 59]، وسبحان مَن إذا أراد شيئًا أن يقول له: كُنْ؛ فيكون!.

نُكْتَة إطلاق ﴿ءَايَةً﴾ على مريمَ وابنِها:

لم تكن مريمُ وابنُها عليهما السلام في حَدّ ذاتِهما بوصفهما بشرَيْن مِن لَحْم ودم آيةً، وإنّما جُعِلتِ الآيةُ فيما ظهر فيهما من "الأُعجوبة الّتي دلَّت على قدرة الله"[1].

من تكريمِ الله تعالى لعيسى وأُمّه عليهم أن صيَّرهما آيةً

سِرّ اختيار لفظ ﴿ءَايَةً﴾ دون مُرادِفاتها:

أوثرَ لفظُ ﴿ءَايَةً﴾؛ لأنَّها "الوسيلة لليقين بقُدرته ومعجزاتِ أنبيائه، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، وبهذا الاعتبار حصل تشريفُ بعضِ المخلوقات؛ فأقسم اللهُ بها؛ نحو: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿٢﴾﴾ [اللّيل: 1]، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾ [الشّمس: 1 - 2]"[2].

الآيـةُ موصِلةٌ لليقينِ ودافعةٌ للارتياب

ففي جَعْل اللهِ تعالى مريمَ البتولَ وابنَها عيسى عليهما السلام ﴿ءَايَةً﴾ إشارةٌ إلى ما فيهما من عَجَبٍ منذ دعتِ امرأةُ عمرانَ فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: 35]، وحتّى حصول حَمْل مريمَ بعيسى عليه السلام بهذه الطّريقة العجيبة، وكذا وضعها ثمّ حديثُ ابنِها في مهده إلى بني إسرائيل مُرورًا برفْعه إلى نزوله للحُكم بشريعة نبيِّنا محمّد ﷺ آخر الزّمان[3]، كلّ ذلك فيه من العَجَب والغرابة على دنيا النّاس ما يجعلُهما ﴿ءَايَةً﴾ من آيات الله تعالى.

سِرُّ التّعبير بالإفرادِ ﴿ءَايَةً﴾ دونَ التّثنية:

مريمُ وابنُها عليهما السلام آيـةٌ مُتكاملةُ الأركـــان من جميعِ النّواحي

منَ العَجب أنْ جَعَل اللهُ تعالى مريمَ - الموهوبة لامرأةِ عمرانَ - خيرًا من الذَّكَر المطلوبِ، ثمّ في قِصّة حَمْلها بعيسى عليه السلام، ثمّ في

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 251.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 139.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 472.

ولادته بلا أبٍ، وفي كلامه ﷺ في المهد؛ كلّ ذلك جَعَله اللّهُ تعالى آيةً واحدةً؛ لأنّه لمّا كان شأنُهما واحدًا، وكانتِ الآية فيهما جميعًا جاز أن يقول ﴿ءَايَةَ﴾[1]، فبين مريمَ وابنِها حالةٌ مُشتركَة هي آيةٌ واحدة، ثمّ في كلٍّ منهما آيةٌ أُخرى مُستقلّة باختلاف حال النّاظر المُتأمِّل[2]، والمراد الجنسُ الشّامل لِما لِكلّ واحدٍ منهما من الآيات المُستقلّة[3].

نوعُ اللّامِ ومعناها:

قِصّةُ مريم وعيسى ﷺ عبرةٌ عامّةٌ واعتبارٌ شاملٌ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ للاختصاص والتّعليل؛ فقد جعلتْ مريم وعيسى ﷺ ﴿ءَايَةً﴾ تخصُّ كلَّ النّاس، وينتفع منها كلُّ الأُمم في ترسيخ الإيمان بعظمة اللّهِ تعالى وقدرته المُطلقة، سواء مَن كان من أُمَّة عيسى ﷺ، ومَن لم يكن منها.

معنى التّعريف الجمعيّ:

كلُّ عاقلٍ سمع بهذه الآية استدلَّ بها على عجيب القُدرة وعظيمِ الرّحمة

التّعريف في لفظِ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ للاستغراق والعموم؛ فكلُّ مَن يقف على قِصّة مريم وابنِها ﷺ لا يتمالك إلّا أن يقول بلسان الحال أو بلسان المقال: سبحانَ اللّهِ وبحمده سبحانَ اللّهِ العظيم؛ تعظيمًا لقُدرته، وخضوعًا لعَظَمته ﷻ؛ فقولُه تعالى: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ "وإن لم يهتدِ بهما جميعُ النّاس، لكنّهما كانا ﴿ءَايَةً﴾، ومَن نظر في أمرهما، ووضع النّظر موضعَه لاهتدى، وإذا أعرض ولم ينظر؛ فالآيةُ لا تَخرج عن كونها حُجّةً ودلالةً بتقصير المُقَصِّر في بابها"[4]، وقد رويّ "عن ابن عبّاس في قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: الجنّ والإنس"[5]، وقال غيرُه: "يُريد لِمَن عاصره فيما بعد ذلك"[6].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 404.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 139.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 522.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 371.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 98.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإحصانُ والمحافظةُ:

"أصل الإحْصانِ المنعُ، والمرأة تَكونُ مُحْصَنةً بالإسلام والعَفافِ والحُرّيَّةِ والتَّزْويجِ، يُقالُ: أحْصَنَتِ المرأةُ فَهيَ مُحْصَنة ومُحْصِنَة، وكَذَلِكَ الرَّجُلُ، والمُحْصَنُ بِالفَتْحِ: يَكونُ بِمَعْنَى الفاعِلِ والمَفْعولِ"[1].

الإحصانُ: العِفّة، والمحافظة: التّعهُّد والرّعاية

و"الحفظُ يُستعمل في كلّ تفقُّد وتعهّد ورعاية، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف: 12]، ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: 238]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون: 5]، ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النّساء: 34]؛ أيْ: (يحفظن عهدَ الأزواج عند غيبتهنّ بسبب أنّ الله تعالى يحفظهنّ)؛ أيْ: يطّلع عليهنّ"[2].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حصن).
(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 245.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»